

التبيان في تفسير القرآن

(297) ولامشير " وأنزل من السماء ماء " يعني غيثا ومطرا فأخرج بذلك الماء الثمرات رزقا لعباده، وسخر لهم المراكب في البحر لتجري بأمره، لأنها تسير بالرياح والله تعالى المنشئ للرياح " وسخر لكم الأنهار " التي تجري بالمياه التي ينزلها من السماء، ويجريها في الأودية، وينصب منها في الأنهار " وسخر لكم الشمس والقمر دائبين " معناه ذلل لكم الشمس والقمر ومهدهما لمنافعكم، وتدبيره لما سخره للعباد ظاهر لكل عاقل متأمل لا يمكنه الانصراف عنه إلا على وجه المعاندة والمكابرة، ولدؤوب مرور الشئ في العمل على عادة جارية فيه دأب يدأب دأبا ودؤوبا فهو دائب، والمعنى دائبين، لا يفتران، في صلاح الخلق والنبات، ومنافعهم " وسخر لكم الليل والنهار " أي ذللها لكم، ومهدهما لمنافعكم، لتسكنوا في الليل، وتبتغوا في النهار من فضله " وأتاكم من كل ما سألتموه " معناه إن الإنسان قد يسأل الله العافية فيعطيه، ويسأله النجاة فيعطيه، ويسأله الغنى فيعطيه، ويسأله الملك فيعطيه، ويسأله الولد فيعطيه، ويسأله العز وتيسير الأمور وشرح الصدر فيعطيه، فهذا في الجملة حاصل في الدعاء لله تعالى ما لم يكن فيه مفسدة في الدين عليه وعلى غيره، فأين يذهب به مع هذه النعم التي لا تحصى كثرة، عن الله الذي هو في كل حال يحتاج إليه، وهو مظاهر بالنعم عليه. ودخلت (من) للتبعيض، لأنه لو كان وآتاكم كل ما سألتموه لاقتضى أن جميع ما يسأله العبد يعطيه الله، والامر بخلافه، لأن (من) تنبئ عنه. وقال قوم: ليس من شئ إلا وقد سأله بعض الناس، والتقدير كل ما سألتموه قد أتى بضعكم. وقوله " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " معناه وإن تروموا عدوها بصدقكم إليه لا تحصونها لكثرتها، ويروى عن طلق بن حبيب، أنه قال: إن حق الله أثقل من أن تقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تحصيها العباد، ولكن، أصبحوا تائبين، وامسوا تائبين. وقوله " إن الإنسان لظلم لظلم نفسه ولغيره، وكفور لنعم الله غير مؤد لشكرها. يعني من تقدم. وصفه بالكفر كثير الظلم لنفسه ولغيره، وكفور لنعم الله غير مؤد لشكرها.